Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويزاد التوتر الأسلوبي شيئاً فشيئاً، وينمو ويقوى ويزداد كذلك عدد النماذج المتشابهة المتوازية، ويصبح النغم، كما تصبح النبرة أكثر تنوعاً: «وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك، مقصورة عليك، وأنها لا تليق إلا بك، ولا تحسن إلا فيك، وكأن لك الكل وللناس البعض وأن لك الصافي ولهم المشوب، هذا سوى الغريب الذي نعرفه، والبديع الذي لا نبلغه. فما هذا الغيظ الذي أنضجك؟ وما هذا الحسد الذي أكمدك؟ وما هذا الإطراق الذي اعتراك؟ وما هذا الهم الذي قد أضناك»؟[1].

(٦٢ ـ ٨٦)

وينتقل الجاحظ بعد هذا إلى طريقة السخرية المفضلة عنده وهي استخدام (الصور المقلوبة المعكوسة) (والذم في معرض المدح). وهنا تبلغ السخرية أقصى درجاتها حدة: (ولم أزل أراك تقدم العرض على الطول، وتزعم أن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول، وذلك كقول الشعراء، ووصف العلماء. قال الشاعر:

كأن بلاد الله، وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

ولم يقل: (كأن بلاد الله وهي طويلة). قال آخر:

. . . . . وفي الأرض، للمرء، العريضة مذهب.

ولم يقل: (الطويلة) وقال: ولا تحسداني، بارك الله فيكما.

على الأرض ذات العرض أن توسعاليا

(١) الجاحظ، رسائل، ص ٨٦.